أصول في التفسير

المحاضرة الخامسة

الشيخ/ د.محمد بن عبد العزيز الخضيري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، حياكم الله مشاهدي الكرام في هذا المجلس من مجالس شرح كتاب أصول في التفسير، لشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله.

أيها الأحبة الكرام، كنا تحدثنا في المجلس الماضي عن المكي والمدني، وذكرنا المسائل المتعلقة بهذا الباب، واليوم نأتي إلى تتمة هذا الكلام من تقريرات شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- فتفضل مشكورًا.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، والمشاهدين، وجميع المسلمين، قال -رحمه الله-: الحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقًا، لتقسيم القرآن إلى مكيٍّ ومدنيٍّ يتبين أنه نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- مُفَرَّقًا، ولنزوله على هذا الوجه حِكمٌ كثيرةٌ منها، أولًا: تثبيت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- لقوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ﴾ يعني كذلك نزلناه مُفَرَّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدوا الناس عن سبيل الله ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

ثانيًا: أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يُقرأ عليهم شيئًا فشيئا، لقوله -تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]}.

إذن الشيخ -رحمه الله تعالى- بعد أن قرر وذكر أن القرآن ينقسم إلى مكيٍّ ومدنيٍّ، وبيننا الفرق بين المكي والمدني، وأن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، بيّن أنه يستفاد من هذا التقسيم أن القرآن نزل مُفَرَّقًا ولم ينزل جملةً واحدةً، ولا شك أننا قررنا هذا في دروسٍ ماضيةٍ، وبيّنّا أن القرآن نزل جملة واحدةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مُفَرَّقًا على ثلاثةٍ وعشرين عامًا، هذا النزول المفرق، قد يسأل سائلٌ ما حكمته؟ وما فائدته؟ فقال: له فوائد، الفائدة الأولى: تثبيت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ودليل ذلك في القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ﴾، أي أنزلناه مُفَرَّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، قد تقول كيف يثبت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- بنزوله مُفَرَّقًا؟ لا شك أن نزول القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- مرةً بعد أخرى يأمره بالصبر، يذكره بما حصل للأنبياء السابقين، يبين له أن النصر قادمٌ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، يبين له عظم الأجر والجزاء الذي سيحصل عليه بعد هذا الصبر والمصابرة، وهذه المكابدة والمعاناة الشديدة التي يلاقيها من يحمل مثل هذه الرسالة العظيمة، كل ذلك تثبيتٌ لفؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل لو لم يحصل إلا أن النبي -صلى

الله عليه وسلم- بين الفينة والأخرى يأتيه جبريل بآيةٍ أو آيتين أو ثلاث، فيتسلى بذلك ويتعزى به أعظم العزاء ويثبت في الطريق ويزداد قوةً.

وأنت لو كانت معك رسالةٌ وأتيت بها إلى قومٍ، فكذبوك وأنت تعلم أن الذي معك حقٌ، ولم يكن معك أحدٌ يقويك ويثبتك ويسليك ويصبرك على لأواء هذا الطريق وعلى تكذيب هؤلاء المعاندين، ستجد أنك بعد فترةٍ تتراجع أو تتوقف أو تفر من الميدان، ولكن من رحمة الله -سبحانه وتعالى- بنبيه أن جعل هذا القرآن ينزل شيئًا فشيئًا؛ ليثبت النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه المحجة وفي هذا الطريق.

ولذلك يأتي في القرآن كثيرًا نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن، وعن الضيق وعن أن يتضجر من هذه الحالة التي عليها قومه بشدة العناد والتكذيب، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، لعلك قاتلٌ نفسك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ولَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، كل ذلك لتثبيته، هذه واحدةٌ، الثانية أن يسهل على الناس حفظه وفهمه، بل حتى على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن قلت أليس بالإمكان أن يلقيه الله على قلبه دفعةً واحدةً، فيحفظه مرةً واحدةً؟ قلنا هذا ممكنٌ وليس هناك شيءٌ عزيزٌ على القدرة الإلهية، لكن الله -عزَّ وجلَّ- أراد أن تمر هذه الشريعة كلها بطريقةٍ مناسبةٍ للبشر، يعني ما يقال فيها هذا لا يصلح إلا للنبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن لسنا مثله، إذن فلا قدوة لنا به، لا، فأنزلت هذه الآيات شيئًا فشيئًا على رسول الله، حتى يستوعبه، يحفظه،

يفهمه فهمًا تامًا، يتقنه -عليه الصلاة والسلام-، وأيضًا الصحابة الذين كان ينزل عليهم هذا القرآن عن طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحتاجون إلى هذه الفترة، لفهمه وحفظه وإدراك مراميه ومعرفة مقاصده، وحمله على أحسن وجوهه، ومدارسته مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعرفة في أي شيءٍ ينزل، كل ذلك من حِكَم نزوله مُفَرَّقًا.

لاحظوا، التوراة نزلت جملةً واحدةً مكتوبةً من عند الله -عزَّ وجلَّ- لكن موسى كان يكتب، أما نبينا -صلى الله عليه وسلم- فكان أُمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك أنزله الله -عزَّ وجلَّ- بهذه الصورة التي نزل عليها، وكانت خيرًا.

{ثالثًا: تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهفٍ وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان}.

لاحظوا هذه الحكمة أيضًا العظيمة، كانت تحدث أحداثًا في وقت النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان الناس يتشوفون ما هو خبر الوحي؟ ماذا قال الله في هذا؟ كيف حكم الله في هذه المسألة؟ قصة الإفك، بقي النبي -صلى الله عليه وسلم- على مقامه ومنزلته شهرًا لا يدري ما المخرج فيها، صحيحٌ أنه -عليه الصلاة والسلام- اتبع الخطوات الصحيحة للوصول إلى النتائج السليمة، لكن تبقى هذه النتائج ظنيةً، فأمنا عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- قُذفت وليس هناك أي أدلةٍ للقاذفين، وأيضًا تصديق المقذوف، فهو المتهم وحده أيضًا من دون أدلةٍ فيه، يعني يبقي في النفس شيئٌ من الشك أو الريب، فبقي النبي -

صلى الله عليه وسلم- لا يدري ما الحقيقة، حتى أنه لما عرض هذا الأمر على عائشة يقول لها: «إن كنت ألممت بذنبٍ فاعترفي فإن الله يغفر لك»، فغضبت أمنا عائشة -رضي الله تعالى عنها- وثارتْ؛ لأنها تعلم من نفسها أنها لم تتلوث بشيءٍ من هذا الذي اتهمه بها هؤلاء الأفاكون، فكان الناس يتطلعون إلى شيءٍ من الوحي ينزل، فنزل الوحي، ونزلت تلك الآيات العظيمة التي برأت ساحة أمنا عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وطهَّرت فراش رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

فهنا شعر الناس بالارتياح، وانبلجت هذه المشكلة، وانفرجت أسارير النبي -صلى الله عليه وسلم-، فرحت أمنا عائشة، استبشر أبو بكر الصديق، وعمت فرحةٌ على المدينة كلها؛ لأن هذا قد ضيَّق صدر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته، فهو أمرٌ عظيمٌ، ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن لا يبتلينا، ولا يبتلي مسلمٌ بشيءٍ من ذلك.

هذا التشوف ينشط الناس، دائمًا يترقبون ماذا يقول الله -سبحانه وتعالى- في هذا الأمر، ماذا يقول في هذه الحادثة، وهذا أحد أسباب التفقه في الدين، وهو أن تنزل الآيات مرةً بعد أخرى في مواقع متعددةٍ، ولأحداثٍ مختلفةٍ، يتعرف الناس من خلالها على حُكم الله -عزَّ وجلَّ- فيها.

{قال -رحمه الله: رابعًا: التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا

بالمنع منه منعًا باتًا، فنزل في شأنه أولًا قوله - تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئةٌ للنفوس لقبول تحريمه، حيث أن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئًا إثمه أكبر من نفعه، ثم نزل ثانيًا قوله -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان في هذه الآية تمرينٌ على تركه في بعض الأوقات، وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثًا: قوله -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩٢].

فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًا في جميع الأوقات، بعد أن هُيئت النفوس ثم مُرِّنت على المنع منه في بعض الأوقات}.

إذن يقول الشيخ: من حكم نزول القرآن مُفَرَّقًا، التدرج في التشريع، دعونا نتوقع أو نتخيل أن آيات الخمر كلها نزلت دفعةً واحدةً، هل سيكون هناك حكمةٌ في التدرج في التشريع؟ هل سيظهر هذا الأمر؟ لا يظهر، لأنه خلاص نزلت الآية الأخيرة مع نزول الآية الأولى، ولذلك كان في نزول القرآن مُفَرَّقًا حكمةٌ بالغةٌ، وهي أن تنزل الشرائع شيئًا فشيئًا، فتحملهم على الأمر الذي يطلب منهم فعله، مرتبةً ثم أخرى، وكذلك على الشيء الذي يطلب منهم تركه،

شيئًا بعد شيءٍ، حتى يتركوه بالكلية، وذكر الشيخ المثال في الخمر، وهو مثالٌ معروفٌ ودارجٌ.

من الأمثلة مثلًا: أيات الجهاد في سبيل الله، فإن الجهاد في مكة كان محرمًا ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، إلى آخره من الآيات التي تدل على وجوب تركهم وعدم منابذتهم، أو قتالهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا﴾ [النساء: ٧٧] كفوا يعني حُرِّمَ الجهاد في مكة، ثم انتقل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، نزل قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، معنى كلمة "أذن" أنه كان محرمًا، فهذا إذنٌ بأن يقاتلوا، لكن يقاتلوا من؟ يقاتلوا من ظلمهم. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وهذا على وجه الإباحة، إذنٌ، ثم نزل بعد ذلك الأمر، لكن لمن؟ الأمر بمقاتلة من يقاتلونه، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، بعدما قويَ المسلمون وصار لهم دولةٌ، لكن هذه الدولة لا تتمكن من غزو الأعداء في كل مكانٍ.

لما استقر المسلمون على ذلك، وقويت شوكتهم، وعظمت دولتهم، انتقل بهم القرآن إلى منزلةٍ رابعةٍ، وهي التي خُتمت بها مراحل الجهاد، وهي قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

تصور لو أن هذه الآية نزلت مع الآية التي يقول الله فيها: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيدًا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] ما فهمنا كيف نحمل هذه ولا هذه، ولا تدرج التشريع، ونقلهم من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ، ومن طورٍ إلى طورٍ.

إذن هذه من أعظم حكم نزول القرآن مُفَرَّقًا، التدرج في التشريع.

آيات الربا، آياتٌ كثيرةٌ، ومجالاتها كبيرةٌ الحقيقة.

{ترتيب القرآن}.

طبعًا الشيخ اقتصر على هذه الحكم التي ذكرها، وهي تقريبًا أربعةٌ، وهناك حِكَمٌ أخرى، ذكرها العلماء -رحمهم الله تعالى- لنزول القرآن مُفَرَّقًا منها: مسايرة الحوادث، يعني كلما حصلت حادثةٌ، ينزل القرآن ببيان حكمها، فيكون ذلك أدعى للفقه والمعرفة، من ذلك مثلًا، أن يُسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- سؤالًا، فيأتي الجواب من السماء، ومن ذلك أن ينبَّه المسلمون إلى أخطائهم، ومن ذلك أن يكشف الله -عزَّ وجلَّ- المنافقين، ويفضحهم في أفعالهم وتصرفاتهم، ومن ذلك أيضًا أن يرد الله -سبحانه وتعالى- شبهات أهل الكتاب عندما يلبِّسون على المؤمنين، فتأتي الآيات تنزل مسايرةً لهذه الحوادث.

أيضًا من حكم نزول القرآن مُفَرَّقًا استمرار التحدي والإعجاز، يعني أن التحدي ليس بالقرآن كله، بل حتى بهذه القطع القليلة التي تنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيها التحدي للناس بأن يأتوا بمثله، ولو قيل لهم: ائتوا بكتابٍ كاملٍ من أوله إلى آخره، لكان في ذلك يعني، عنتا عليهم، لكن التحدي

مستمرٌ حتى في هذه القطع اليسيرة، هاتوا آيةً، حديثًا مثله، سورةً، عشر سورٍ مثله مفترياتٍ، وأيضًا أن يستمر هذا التحدي من أول القرآن إلى آخره، إذا جئت في القرآن تقرأه الآن، لا يمكن أن تقول: هذا فيه ركة، وفيه ضعفٌ بلاغيٌّ، تطورَ تطورَ إلى أن وصل إلى ذروة البلاغة في آخره، لأن الذي يكتبه أو الذي يؤلفه إنسانٌ جالسٌ يتمرن أو يتدرب على القول، أو على ألوانٍ من الإبداع، لا، هو نزل من عند الله -عزَّ وجلَّ-، أوله كآخره، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] أي في القوة، والإعجاز، والبلاغة، والفخامة، والجزالة، والإحكام، كله على منوالٍ واحدٍ، وهذا أبلغ في الإعجاز مما لو نزل جملةً واحدةً، لو نزل جملةً واحدةً لقيل: كُتب في لحظةٍ واحدةٍ، بطريقةٍ واحدةٍ وانتهى، لكن أن يبقى ثلاثةً وعشرين عامًا ينزل، وأوله كآخره، وأوسطه كأوله وآخره، لا فرق بين ذلك كله، تقرأ القرآن فلا تدري ما هي الآية التي نزلت قبل الأخرى، من شدة ما فيه من التشابه في البلاغة والقوة والإعجاز والإحكام، فتعلم بذلك أن القرآن من عند الله -عزَّ وجلَّ-، فهذه إحدى الحكم أيضًا في نزول القرآن مُفَرَّقًا على هذه المدة الطويلة.

{قال -رحمه الله: ترتيب القرآن، ترتيب القرآن تلاوته تاليًا بعضه بعضًا، حسب ما هو مكتوبٌ في المصاحف، ومحفوظٌ في الصدور، وهو ثلاثة أنواعٍ}.

المؤلف -رحمه الله- بعدما تكلم عن المكي والمدني، ناسب أن يتكلم عن ترتيب القرآن، يعني ترتيبه بمعنى أن يُقرأ على هذا النحو الذي هو موجودٌ عليه بيننا اليوم، سورةً بعد سورةٍ، وآيةً بعد آيةٍ، فهذا مناسبٌ للحديث بعد ذكر

المكي والمدني؛ طيب لماذا لم يُجعل المكي في جهة؟ والمدني في جهة؟ يعني جُعل المكي في أول القرآن، والمدني في آخره، أو العكس من ذلك؟ لماذا خُلط هذا الخلط؟ فجُعلت سورةً مكيةً، ثم سورةً مدنيةً، وتنزل السورة كلها في مكة، ومنها ثلاث أو أربع آياتٍ في المدينة، والعكس كذلك كما بيَّنا ذلك في الدرس الماضي، لماذا جُعلت على هذه الصورة؟ لماذا رُتِّبَ هذا الترتيب؟ ما سر هذا الترتيب؟ هل هذا الترتيب كله من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أو أن هناك اجتهادًا من الصحابة في ترتيبه؟ هذا ما سيبينه المؤلف -رحمة الله تعالى عليه- في هذا الفصل.

{قال -رحمه الله: وهو ثلاثة أنواعٍ:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمةٍ في موضعها من الآية، وهذا ثابتٌ بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفًا في وجوبه، وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ "لله الحمد رب العالمين" بدلًا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾}.

ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- أن ترتيب القرآن يعني في الدلالة في القسمة العقلية، ينبغي أن يكون كالتالي: ترتيب الكلمات في الآيات، ثم ترتيب الآيات، ثم ترتيب السور، فما فيه شيءٌ آخر أكثر من هذا.

أولًا نقول: القرآن يتكون من آياتٍ وسورٍ.. دعونا نلفت النظر إلى شيءٍ عجيبٍ في القرآن، القرآن لما جاء غيَّر كل المصطلحات الدارجة عند العرب، فكان عندهم شيءٌ اسمه مثلًا القصيدة، ومجموعة القصائد تُجمع في ديوانٍ، والقصيدة مكونةٌ من أبياتٍ، والبيت يكون له مؤخرةٌ وهي القافية، هذه الأسماء

والمصطلحات التي درجوا عليها، القرآن اختلف عن ذلك تمامًا، فالمجموع سمي قرآنًا، والقطعة منه سمي سورةٌ، والجزء من تلك القطعة سمي آيةً، والخاتمة لكل آيةٍ لم تسمَّ قافية، وإنما سميت فاصلًا، وهذا لأجل ألا يُشبَّه القرآن بغيره، بل هذا شيءٌ آخر ولونٌ آخر من ألوان الكلام، والإبداع، والمعاني، والحكم، ليس له نظيرٌ عند هؤلاء الذين نزل عليهم هذا الكتاب العظيم.

هذا القرآن مكونٌ من سورٍ وآياتٍ، السورة لماذا سميت سورة؟ قيل مأخوذٌ من السؤر، وهي البقية، يعني كأنها قطعةٌ من القرآن، كالسؤر الذي يبقى من الشيء، وهذا القول فيه بُعدٌ، وقيل: من السور، وليس من السؤر، والسور إما أن يكون بمعنى العالي والمرتفع، والمنزلة لعلو السورة ورفعة شأنها، أو من السور الذي يحيط بالشيء، وهذا أقرب، بمعنى أن السورة فهي مكانٌ أو شيءٌ قد أحيط ببدايةٍ وخاتمةٍ، ينفصل عما قبله، وعما بعده، فسميت السورة من هذا، وأما الآية، فهي العلامة، فالآية من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- علامةٌ على أن هذا الكتاب من عند الله -جلَّ وعلَا-، وأنه معجزٌ، وقد تحدى الله -عزَّ وجلَّ- العرب أن يأتوا بحديثٍ مثله، وهذا يصدق في كل آيةٍ ولو كانت مكونةً من كلمتين أو ثلاثٍ أو أربعٍ بحسب الآيات.

ذكر الشيخ النوع الأول وهو ترتيب الكلمات في الآية، هذا بإجماع العلماء ولا يُعرف فيه خلافٌ، أن هذا الترتيب توقيفيٌّ، وليس محلًا للخلاف، هل تجوز مخالفته، بأن نغير الترتيب نحن؟ طبعًا بالإجماع أيضًا، القاطع أنه لا يجوز لأحدٍ أن يغير ترتيب الكلمات في الآية، فهو قد نزل من عند الله مرتبًا، من حيث كلماته،

ولا يجوز لأحدٍ منا أن يغير هذا الترتيب فيقدم أو يؤخر، فيقول مثلًا: "لله الحمد رب العالمين" بدلاً من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أو يقول: "الرحيم الرحمن" أو "مالك" ثم يغير في ترتيبها، أو "إياك نستعين، وإياك نعبد" مثلًا، فهذا بلا إشكالٍ، وهذا الأمر لم يقع فيه خلافٌ، وليس محلًا للإشكال، لماذا؟ لأنه معلومٌ من الدين بالضرورة، لكن ذكره الشيخ لتتمة القسمة.

{قال -رحمه الله: النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آيةٍ في موضعها من السورة، وهذا ثابتٌ بالنص والإجماع، وهو واجبٌ على القول الراجح، وتحرم مخالفته، ولا يجوز أن يقرأ "مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم" بدلًا من ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤].

ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقد نسختها الآية الأخرى، يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذه قبلها في التلاوة، قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان -رضي الله عنه: يا ابن أخي، لا أغير شيئًا منه من مكانه.

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث عثمان -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»}.

بعدما ذكر الشيخ النوع الأول، وهو ترتيب الكلمات في الآية، وأنه مُجمعٌ عليه، وأنه لا تجوز مخالفته بالإجماع أيضًا، انتقل إلى ترتيب الآيات في السورة، وقال الشيخ: هذا أيضًا ثابتٌ بالنص والإجماع، فهذا الترتيب للآيات في سورة الفاتحة، أو في البقرة، أو آل عمران، أو غيرها من سور القرآن ثابتٌ نصًا وإجماعًا، وليس محل خلافٍ بين العلماء.

سؤالٌ آخر: هل يجوز لنا أن نغير هذا الترتيب، فنقدم الآية على التي قبلها؟

قال: وهذا على القول الراجح: لا يجوز، لاحظ في المرة الأولى قال: بالإجماع، هنا الترتيب مجمعٌ عليه، هل يجوز لنا أن نغير هذا الترتيب بمعنى أن نقرأ آيةً متأخرةً، قبل آيةٍ متقدمةٍ، قال: على الراجح لا يجوز، وتحرم مخالفته، ولا يجوز أن يقرأ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم يقول: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، لماذا؟ لأن الصحابة -رضوان الله عليهم- قد أبقوا القرآن على ما هو عليه، وقد تلقوه من النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الطريقة، فلا يجوز لأحد أن يغير القرآن عما هو عليه، وما شاع في بعض الدول، من أنهم يختبرون الحافظ بتنكيس السورة، هذا سوء أدبٍ مع القرآن، حتى وإن أرادوا بذلك اختبار قوة حفظه، فاختبار قوة الحفظ لا يليق أن تكون بهذه الأساليب التي يكون فيها تنكيس للسورة من آخرها إلى أولها، يعني يطلبون من الحافظ أن يقرأ سورة البقرة من آخر آية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، إلى آخره، فنقول: ما ينبغي هذا؛ لأن هذا إساءة

أدبٍ مع القرآن، وتغيير للترتيب الذي نزل عليه القرآن، وهو مُجمعٌ عليه، فلا يجوز لنا أن نسوِّغ هذا بأي حجةٍ من الحجج.

ما الدليل على أن هذا الترتيب كان ترتيبًا توقيفيًّا؟

قال: حديث عبد الله بن الزبير أنه قال لعثمان بن عفان -رضي الله عنهم- في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فهذه الآية في عدة المتوفى عنها زوجها، هذه الآية جاءت في سورة البقرة متأخرةً عن آيةٍ ناسخةٍ لها، يعني الناسخة جاءت متقدمةً، والمنسوخة جاءت متأخرةً، والعادة أن المنسوخ يأتي أولًا، ثم يأتي بعده الناسخ، مثل آية المصابرة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦]، فنسخت هذه الآية، الآية التي قبلها، وكذلك في آية المناجاة، التي في سورة المجادلة، ذكر الله -عزَّ وجلَّ- أنه يجب عليهم عند مناجاتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يتصدقوا، ثم في الآية التي تليها، ذكر نسخ ذلك، وزال الحكم عن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم.

في هذه الآية -آية العدة- جيء بالآية الناسخة أولًا، وهي قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] ثم بعدها بقريبٍ من وجهٍ، جيء بالآية المنسوخة، فلو

كان الأمر بترتيب القرآن اجتهاديًّا، لجُعلت الآية المنسوخة تتلى أولًا، وفي الترقيم متقدمةً، ثم يؤتى بالآية الناسخة.

ولذلك لما قال عبد الله بن الزبير لعثمان –رضي الله عنهم: هذه قبلها في التلاوة، فلم تكتبها؟ يعني لماذا جعلتم هذه قبل هذه والأولى أن تعكسوهما؟ فماذا قال عثمان –رضي الله عنه– مجيبًا له: قال: يا ابن أخي لا أغير شيئًا من مكانه، هذا يدل على أن له مكانًا لا يُغيَّر عنه، ومثلها في سورة الأحزاب، في قول الله –عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] هذه الآية ناسخةٌ لآيةٍ جاءت بعدها، وهي قول الله –عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، هذه نزلت على رسول الله أولًا، ثم أنزل الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾، فقالت عائشة –رضي الله عنها– للنبي –صلى الله عليه وسلم: أرى ربك يسارع في هواك، يعني أنه حرَّم عليك أن تغير أزواجك، ثم أحل لك من بعد ذلك هذه الأنواع من الأزواج المذكورة في آية الأحزاب، وهي الأولى، والآية المنسوخة جاءت ثانيةً.

قال :وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث عثمان –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا».

هذا يدل على ماذا؟ يدل على أن وضع الآيات في مواقعها توقيفيٌّ من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن محلًا لاجتهاد الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم.

{قال -رحمه الله: النوع الثالث: ترتيب السور، بحيث تكون كل سورةٍ في موضعها من المصحف، وهذا ثابتٌ بالاجتهاد، فلا يكون واجبًا، وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- أنه صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلةٍ، فقرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري تعليقًا عن الأحنف، أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف، أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة -رضي الله عنهم- في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان -رضي الله عنه- صار هذا مما سنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنةً يجب اتباعها}.

النوع الثالث، وهو ترتيب السور، فهذا ليس كترتيب الآيات، الآيات قد رُتِّبت توقيفيًّا بلا شك، لكن في ترتيب السور اختلف العلماء، فمنهم من يقول: إن ترتيب السور توقيفيٌّ، ويستدلون على ذلك بحديث أوس بن أبي أوس عند أحمد وأبي داود، أنهم سألوا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف كنتم تحزبون القرآن؟ أو هل كنتم تحزبون القرآن؟ قالوا: نعم نقرأ ثلاثًا وخمسًا، وسبعًا، وتسعًا،

وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزبًا مفصلًا وحده، قالوا: فهذا دليلٌ على أن الصحابة كانوا يعرفون أن كل سورةٍ لها مكانٌ محددٌ، وأنت إذا نظرت إليها بهذا الترتيب، لوجدت أنها متقاربةٌ في التقسيم، يعني كل ليلةٍ لها نفس القدر، تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا، البقرة، آل عمران، النساء، هذه حزبٌ، حزب ليلة، بعدها تأخذ المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة، وهذه الخمس تساوي الثلاث التي قبلها من حيث المقدار، وهكذا السبع التي بعدها تساوي الثلاث والخمس، كل واحدةٍ في ليلتها، ويحتج بعض العلماء بهذا الحديث على أن هذا التقسيم الوارد في القرآن، هو تقسيمٌ توقيفيٌ وأنه ليس هناك محلٌ للاجتهاد فيه، كما احتجوا أيضًا بترتيب الحواميم، قالوا: إنها جاءت كلها متواليةً، من سورة غافر إلى سورة الأحقاف، بعضها إثر بعضٍ، لكن المسبحات وهي "سبح لله"، "يسبح لله" ما جاءت متواليةً، فلو كانت القضية ترتيبًا اجتهاديًّا، لروعي ترتيب الحواميم، والطواسيم، و المر، الر، وجعلت كلها متواليةً، هذا دليلٌ من أدلة من قالوا بأن هذا توقيفيٌّ.

القول الثاني: اجتهاديٌّ وهو الذي مال إليه شيخنا في هذا الكلام الذي ذكره -رحمه الله-، وهو قول جماهير العلماء، أن هذا الترتيب اجتهادٌ من الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم-، واستدلوا على ذلك باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة، هذا أولًا، فلو كان الترتيب من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ما اختلفت مصاحف الصحابة في ذلك، والثاني: لكون النبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت عنه أنه خالف في الترتيب في الصلاة، فثبت أنه قرأ في قيام الليل

بسورة البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، فلو كان الترتيب توقيفيًّا ما خالف ذلك، فدل ذلك على أن الترتيب اجتهاديٌّ، هذا قولٌ لبعض العلماء، أو لجمهور العلماء.

القول الثالث: أن بعض الترتيب توقيفيٌّ، وبعضه اجتهادي، فهناك آياتٌ أو سورٌ نص النبي -صلى الله عليه وسلم- على ترتيبها، كالزهراوين: البقرة، وآل عمران، والمعوذتين: الفلق، والناس، وبعض السور ترتيبها اجتهاديٌّ من الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم-، والشيخ كما رأيتم الآن قد رجح أنه اجتهاديٌّ، ماذا يترتب على ذلك؟ قال: بما أنه اجتهاديٌّ فيجوز أن نخالف هذا الترتيب، بأن نقرأ سورةً متأخرةً ونقدمها على سورةٍ قبلها، فلو أن الإمام في الصلاة قرأ سورة ألم نشرح في الركعة الأولى، في الركعة الثانية قرأ الضحى، لكان ذلك جائزًا ولا شيء فيه، بل لو قرأ في نفس الركعة، مثلًا سورة الناس ثم قرأ بعدها سورة الفلق أو سورة الشرح أو القدر، لكان ذلك جائزًا لأن هذا الترتيب اجتهاديٌّ، ونحن نقول: حتى ولو قلنا بأن الترتيب توقيفيٌّ، فإنه لا يلزم من ذلك أن نقرأه بنفس الترتيب الذي وقفنا عليه، حتى لو قلنا بأنه توقيفيٌّ، فلو قلنا الترتيب من أول القرآن إلى آخره من عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا له أدلةٌ قويةٌ منها حديث أوس بن أبي أوس، فإننا نجيز أن يقرأ القارئ بسورةٍ متأخرةٍ، ويقدمها على سورة قبلها، لماذا؟ لثبوت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن هذا الترتيب لا تلزم مراعاته في التلاوة أو في الصلاة ونحو ذلك.

{قال -رحمه الله-: كتابة القرآن وجمعه، لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة؛ لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ، وقلة الكاتبين، ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحفٍ، بل كان من سمع آيةً حفظها أو كتبها فيما تيسر له من عسب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف، وكان القراء عددًا كبيرًا، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث سبعين رجلًا يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان}

حيان: تثنية حي.

{فعرض لهم حيان من بني سُليم، رعلٌ وذكوان، عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيٍّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء -رضي الله عنهم}.

إذن ذكر الشيخ بعد أن تحدث عن ترتيب القرآن، القرآن فيه مكيٌّ ومدنيٌّ، وقد رُتِّبَ هذا الترتيب إن كانت الكلمات فهذا بالإجماع، إن كانت الآيات، فهذا أيضًا بالإجماع، وتحرم مخالفته، إن كانت السور، فخلافٌ بين العلماء على ثلاثة أقوالٍ، من جمع القرآن بهذه الصورة؟ وكيف تم جمعه؟ لأجل ذلك تحدث المؤلف -رحمه الله تعالى- عن كتابة القرآن وجمعه، وبيَّن أنها صارت على ثلاث مراحل.

أولًا نحن نقول: إن جمع القرآن ثلاثة أنواعٍ:

النوع الأول: جمع القرآن بمعنى حفظه، وهذا ثابت في القرآن، كما قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]، فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يلقى من الوحي شدةً، وكان يستعجل في التلاوة؛ خشية أن ينسى شيئًا مما يوحيه جبريل إليه -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-، فالله -عزَّ وجلَّ- طمأنه، وقال: يا محمد، إذا نزل عليك جبريل، فأنصت له، فإن الله سيجمعه في صدرك، وهذا أول أنواع علوم القرآن نشأةً، أول نوعٍ من أنواع علوم القرآن نشأةً، هو جمعه في الصدر، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستمع ثم يجمع الله -عزَّ وجلَّ- برحمته وفضله القرآن في صدره، فإذا انفصل عنه جبريل، تلا ما أوحي إليه، لم ينقص منه شيئًا، وهذا النوع دائمٌ لا ينقطع، إلى أن يأذن الله -عزَّ وجلَّ- بارتفاع القرآن، وهذا في آخر الزمان، حيث يرفع الله القرآن فلا يبقى منه شيءٌ في الصدور، ولا في السطور، وهذا النوع خاصٌ بالقرآن، فلم يشركه فيه كتابٌ آخر، وهو أن يأتي الجماعات الكثيرة، والأجيال المتعاقبة كلهم يحفظون هذا الكتاب، ويتلونه، فإن الكتب السابقة لم تحظ بشيءٍ من ذلك، ولا يوجد كتابٌ في العالم منذ أن خلق الله آدم إلى اليوم، حُفظ مثل ما حُفظ هذا الكتاب في الصدور، وقد يسره الله -عزَّ وجلَّ- حتى إن الأعجمي ليحفظه كما يحفظه العربي، ونجد أبناء الأعاجم لا يحسن الواحد منهم كلمةً واحدةً في العربية، ومع ذلك يقرأ القرآن كأنما هو من أبناء العرب الأقحاح، وهذا من فضل الله -عزَّ وجلَّ-، إذن هذا جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور.

النوع الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته، لاحظوا لتثبيت أي شيءٍ، نحتاج إلى حفظٍ، ونحتاج إلى كتابةٍ، حتى يكون شاهدي عدل على هذا الموحى به من عند الله -عزَّ وجلَّ-، هذه أعلى درجات التثبت، تكون هناك حافظةٌ قويةٌ، وأجيالٌ، وأعدادٌ كبيرةٌ تمسك بهذا المحفوظ في صدورها، والثاني أن يكون هذا المحفوظ مكتوبًا حتى لو التبس شيءٌ، أو خُشي أن يكون زِيد أو نُقص منه شيءٌ، وإذا بأحد هذين العنصرين يشهد للآخر، وهذا ما حظي به القرآن الكريم، وحصل له وهو أن يُجمع في الصدور، ويُجمع في السطور أيضًا مكتوبًا.

هذا الجمع في السطور، وهو الكتابة، مر بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان يُكتب القرآن بعدما يوحى به، يدعو النبي -صلى الله عليه وسلم- أحد كتَّاب الوحي، من هم كتُّاب الوحي؟ هم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأشهرهم: زيد بن ثابت، والخلفاء الأربعة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، معاوية بن أبي سفيان، وغيرهم من الصحابة، بلغوا أكثر من عشرين كاتبًا من كتَّاب الوحي، ممن كانوا يكتبون للنبي -صلى الله عليه وسلم- مما يوحى إليه من القرآن، فكان يُكتب. على أي شيءٍ يُكتب؟ كان يُكتب في العظام، يعني الأكتاف التي تبقى من الذبائح، هذه كانوا يتخذونها للكتابة، في الرقاع، في اللخاف، وهي الحجارة الرقيقة، يكتبون عليها شيئًا من القرآن، في الكرانيف، وهي أواخر عسب النخيل، تسمى كرانيف، تؤخذ وتجعل محلًا للكتابة، في الجلود، كل هذه كانت أدوات للكتابة، يكتب، المهم لابد يضبط،

لكن هذا الذي يكتب لم يكن مجموعًا في مكانٍ واحدٍ، بل كتب وبقي عند زيد، كتب وبقي عند أبي بكر، كتب وبقي عند عمر، بقي عند معاوية، بقي عند فلانٍ من الصحابة، كل واحدٍ، المهم مكتوبٌ وموجودٌ وموثقٌ من حين ما كتب عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكانت هذه هي الكتابة التي في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو بهذه الحال، لماذا لم يُجمع في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرتب من أوله إلى آخره؟ طبعًا هو الآن محفوظ مرتبًا من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، لكن كتابةً ليس مرتبًا، لماذا؟ لأنه لا توجد فرصة لترتيبه، ما يزال ينزل، فكيف يرتب وهو ما يزال ينزل؟ ولم يكن هناك ورقٌ، يُجمع في كتابٍ أو في جلدٍ، لم يكن هذا الأمر سهلًا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأيضًا هناك آيات تُنسخ، وأيضًا الترتيب لم يكن على حسب السور، أو على حسب النزول، وإنما ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، فالحاصل أن هذا هو السبب الذي جعل القرآن لم يُجمع مكتوبًا في كتابٍ واحدٍ جامعٍ لكل ما نزل من كتاب الله -عزَّ وجلَّ.

ثم بعد ذلك جاء الجمع الثاني في عهد أبي بكر الصديق، ولعلنا نتوقف عند هذا الحد؛ لنؤكد على أن الجمع الذي كان في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- قد صار له عددٌ من المميزات:

أولًا: جميع القرآن مكتوبًا، لكن لم يكن في مكانٍ واحدٍ، ولا مجموعًا في جلدٍ واحدٍ، بل مُفَرَّقًا بين أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكتَّاب الوحي،

وزوجات النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان مكتوبًا حتى بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ولم يكن على حرفٍ واحدٍ، أو على ما يوافق العرضة الأخيرة، وكان مرتب الآيات، وما نُسخ تلاوة كان موجودًا أيضًا، ما الدليل؟ حديث عائشة في صحيح مسلم، قالت: كان مما نزل: "عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن" فنسخن بخمس رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن"، فتوفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهن مما يُتلى في القرآن.

سؤال: هل يوجد في القرآن ذكرٌ للرضعات الخمس التي نسخت الرضعات العشر؟

لا يوجد.

إذن ما معنى حديث عائشة؟

نسخت تلاوةً، وبقيت حكمًا، لكن رفعها حتى من المكتوب لم يحصل في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني نزل نسخها، لكن بقيت موجودةً، فقالت عائشة: فتوفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهن مما يُتلى في القرآن، مما يدل على أن نسخها كان متأخرًا، لم يكن بينها وبين وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أيامٌ، أو أسابيع قليلةٌ، ولذلك بقي بعض الصحابة يتلوها، حتى بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لعدم علمه بأنها نُسخت.

فهذه هي أهم مميزات جمع القرآن في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم.

{في ترتيب الآية، تطرقتم في اختبار الحفظ، لا يجوز عكس الآيات، فهناك أيضًا نرى أن هناك في تمرين الحفظ بعض يقرأ آية ويقفز للآية التي تليها}.

إذا كان هذا في آيةٍ وآيةٍ فقط، وما هي الآية التي بعد تلك الآية، فلا بأس، أما على وجه التلاوة، بأن يقرأ مثلًا يقول: "الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين اهدنا الصراط المستقيم" على وجه التلاوة، لا يجوز، ولكن أنا ذكرت هذا الذي ذكرته؛ لأني أعلم زرت بعض البلاد في أفريقيا، من شدة إتقانهم للحفظ، يختبرون الطالب في أن يأخذ سورة البقرة من آخرها إلى أولها، يتلوها هكذا بالتنكيس، وهذا لا يجوز؛ لأنه مخالفةٌ للترتيب الذي عليه المصحف، ولا يلزمنا أن نختبر الناس بهذه الطرق، إذن هذا قد ينزلنا بعد مرةٍ أخرى، أن نقول له: اعكس الآية نفسها، كلمةً كلمةً، من آخرها إلى أولها، من باب الدلالة على قوة ما يحفظه من كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، ولكن نقول: ينبغي أن تكون هناك آدابٌ تُراعى، وأحكامٌ تمتثل، فلا يتعداها أحدٌ.

نأتي بعد ذلك إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر، ثم جمع القرآن في عهد عثمان، ونجعل هذا -إن شاء الله- في الدرس القادم، ونبين ما هو الفرق بين جمع أبي بكر، وجمع عثمان -رضي الله عنهما- وهذه من المسائل التي نحتاج أن نتروى فيها، والشيخ كتب فيها كتابةً مختصرةً طيبةً، تصلح لطالب العلم المبتدئ.

أسأل الله بمنه وكرمه، أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يجعل هذا العلم حجةً لنا، وأن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته، نشكركم إخواني على

حضوركم في هذا المجلس، كما نشكر إخواننا على حسن متابعتهم، ونستودعهم الله الذي لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.